محبة النبي ﷺ وتعظيمه

إعداد:

عبد الله بن صالح الخضيري

عبد اللطيف بن محمد الحسن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

محرم ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

ح **مجلة البيان ١٤٢٦هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخضيري، عبد الله صالح

محبة النبي ﷺ وتعظيمه. / عبد الله صالح الخضيري؛ عبد اللطيف محمد الحسن ـ الرياض ، ١٤٢٦هـ

ص ٨٧؛ ١٧× ٢٤سم

ردمك: ٨ ـ ٤ ـ ٩٦٣٧ ـ ٩٩٦٠

١ ـ السيرة النبوية ٢ ـ الشمائل المحمدية أ. الحسن، عبد اللطيف محمد (مؤلف مشارك)

ب ـ العنوان

ديوي ٢٣٩,٦ ١٤٢٦/٦٩٤٦

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٦٩٤٦

ردمك: ٨ ـ ٤ ـ ٩٦٣٧ ـ ٩٩٦٠

المقدمـة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على النبي المجتبى، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى، وبعد:

قارئي الحبيب:

هل رأيت مسلماً لايحب النبي ﷺ؟!

هل عرفت محباً لا يجود بالمهر، ولا يقوم بالخدمة؟!

وهل تستقيم محبة مع عصيان الحبيب والابتعاد عن طريقه؟!

أسئلة كثيرة تهم المحبين.. تأتيك هذه الرسالة للإجابة عليها، في جولة ماتعة مع شواهد القرآن الكريم، ودلائل سنة الحبيب العطرة، وحياة المحبين المرافقين للحبيب ـ رضي الله عنهم ـ طيلة حياته.

تأتي هذه الرسالة مشتملة على مبحثين لطيفين، لإرشاد المحب الصادق لنبيه ﷺ إلى حقيقة تلك المحبة ومعناها الكبير، ولبيان ما يجلبها، ويصححها، وينقيها، وينميها، ويثبتها. بالإضافة إلى إشارات تحذر مما يشوش على تلك المحبة، ويخدشها ويضعفها، وربما يسقطها ويجعلها مجرد دعوى عارية عن الدليل، خالية من البرهان، لو أقامها صاحبها أمام القاضي ما أعطاه بها بصلة!

هذا الكتيب تقدمه لك مجلة البيان برهاناً على محبتها لك، لأنك أحببت حبيبها ﷺ؛ من أجل أن نتعاون سوياً في تحقيق المحبة.

سائلين الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا وإياك ممن صدقوا في محبة الله ورسوله، وقاموا بحقها، وحذروا خوارمها، فهداهم ربهم سبل السلام، وأورثهم الفردوس، هم فيها خالدون.

وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه والصادقين في محبته، إلى يوم يبعثون. والحمد لله رب العالمين.

مجلة البيان

الرسالة الأولى

دمعة على حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

عبد الله بن صالح الخضيري

قلِّب عينيك في الملكوت ترَ الجمال بديعاً، وافتح قلبك لأسرار هذا الجمال ترَ الحياة ربيعاً، وخُض في معترك الحياة تكن لك الحياة جميعاً، واجمعْ لي قلبك أجمعْ لك عقلي، وامنحني يدك فإني لأرجو أن أمنح لك حياةً هادئة سعيدة بإذن الله، وافتح صدرك أملأه دفئاً ومحبةً وصدقاً، كن معي لأكون لك وكما تحب.

وأعطني دمعةً تحيي بها قلبك، وتسلّي بها نفسك، فدموعنا مداد للفكر، وعبراتنا ثباتٌ على المبدأ، وبكاؤنا دوامٌ على النهج والمنهج، قلوبنا أهديناها بالحب إلى غير محب ففقدنا أعزَّ ما نملك، وإذا بنا نتحسس أماكنها وقد تَوَهَّمنا وجودها، إننا بحاجة إلى أن نحب ولكن لا نغلو، ونهوى ولكن لا نفرط، ونعشق ولكن بتعفف.

إن القلب هو الكنز الذي لا يقرؤه إلا من يملكه، وإن راحة الضمير أنوارٌ تتلألأ في الغَلَس، وينابيع متفجرة في الصحارى، وكنوز داخل البيوت المهجورة، كم من الوقت ضاع لأجل الحب وفي دوّامته؟ وكم من العقول ذهبت لأجل الحب وفي دائرته؟ ونغرق يومنا في أبجديات الحب!! فمحب يعيش بين الذكرى والنسيان، ومحب يتيه بين الوصل والحرمان، حبٌّ يُسعد في الاسم، ويُشقي في الرسم، جمالٌ في الصورة، وغموضٌ في الحقيقة.

الحب تاجٌ لكنه من حديد، وكنزٌ لكنه من تراب، ومعدنٌ لكنه من سراب، وأي حبٍ يُدَّعى فإنه ناقصٌ إذ العلاقات بين الآدميين بنيت على المصالح - في الغالب - وإن تنوعت صور الجمال أو تجمَّلت الصور. وإن لكل فؤادٍ نزعةَ حبٍّ عذريةً تفيضُ بعذبِ الهوى ونميره، ولو اطَّلع الناس على قلوب القساة لوجدوا

فيها أنهاراً متدفقة من الحب والرحمة، ولكنها تصب في أرض قيعان.

وإني أحمل راية بيضاء لبيض القلوب أن تتوجه بالحب إلىٰ أصدق الحب وأبقاه، وأبقىٰ البر وأوفاه إلىٰ. . . .

أشـــواقنا نحـــو الحـــجـــاز تـطلّـعت كـــحـنين مـــغـــتـــرب إلـى الأوطانِ
إن الطـيـــور وإن قـــصـــصتَ جـناحـــهـــا تســـمـــو بهـــمَّـــتـــهـــا إلـى الطيـــرانِ

لن أقول: «كانت الحياة قبل البعثة ظلاماً»؛ إذ لا يجهل ذلك أحد، ولن أقول: «كان الظلم، ولم يكن غيره»؛ إذ لا أحد يشكُّ في ذلك، ولن أقول: «كان الحق للقوة»، و «كانت الحياة للرجل لا للمرأة»؛ إذ الناس أجمعوا علىٰ ذلك، ولكني أقول: مع البعثة وُلدت الحياة، وارتوىٰ الناس بعد الظمأ:

لمّـا أطلَّ مـــحـــمـــدٌ زكـت الرُّبـى واخـضـــرَّ في البـــسـتـــان كل هشـــيم

وكان من المبشرات بميلاد الحياة ما صادف المولد النبوي من إهلاك أصحاب الفيل؛ فإنه بشرىٰ بإهلاك الطاغوت والطغاة، وولادةٌ لفجر العدالة والحياة، كما أن في إهلاكهم اجتماعاً لكلمة قريش وتوحدها، ولذا أنزل الله ـ تعالىٰ ـ بعد سورة الفيل سورة قريش، بياناً لسبب من أسباب إهلاك أصحاب الفيل وهو أنه لتأتلف قريش، ومن بعد ذلك كلِّه ذكَّر قريشاً بنعمتين عظيمتين، أُولاهما: أن أطعمهم من جوع، وتمثَّل ذلك في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وثانيهما: أن آمنهم من خوف، وهنا كلمة «خوف» جاءت نكرة دالة علىٰ العموم، فيدخل في ذلك كلُّ خوفٍ ألمَّ بهم فأمنوا منه، كما في قصة أصحاب الفيل وأبرهة الأشرم، أو خوفٍ يحدث لهم بعد ذلك ظاهراً كبعثة محمد ﷺ، وإنما هو رحمةٌ وأمنٌ وأمان لهم ظاهراً وباطناً، حينما يظهره الله ـ تعالىٰ ـ كما أهلك الله أصحاب الفيل لكي تتعلق القلوب بربِّ البيت الذي أهلك البغاة، وكيف يكون شكرهم له.

وقـــاية اللـه أغنت عـن مـــضـاعـــفـــةٍ من الدروع وعـن عـــــــال من الأُطمِ

ومما كان ممهِّداً ومقدِّماً لدعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ : اجتماع النفوس على نصر المظلوم، وردِّ الفضول على أهلها، وبه سمي الحلف، وفيه انتصار للعدالة، وإنْ كان ذلك على نطاق ضيق لكن : «لا شك أن العدل قيمةٌ مطلقةٌ وليست نسبيةً، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين؛ فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية»(١).

وقد قال النبي ﷺ عن ذلك الحلف : «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه»(٢)، وسمَّاه : المطيبين؛ لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول، وإنما كان حلف المطيبين قبل ميلاد محمد ﷺ بعد وفاة جده قصي(٣).

ومن ذلك ما روى البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : «كان يوم بُعاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ، فَقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهم، وقُتلت سرواتهم، وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»(٤).

هذا على العموم وفي الظاهر. أما ما كان ممهداً له ﷺ في ذاته فإن الخلوة والتعبد من أهم سمات العظماء(٥)، فإنه بعد ذلك ممتلئٌ بما فرّغ نفسه له؛ فقد

(١) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري : ١/ ١١٢.
(٢) أخرجه أحمد برقم ١٦٥٥، وصححه أحمد شاكر، كما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني فيه برقم ٤٤١ / ٥٦٧، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٩٠٠.
(٣) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري : ١/ ١١٢، وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث كما في المسند : ٣/ ١٢٠ مكتبة ابن تيمية.
(٤) البخاري، رقم ٣٧٧٧.
(٥) فائدة : قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٦) : «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس : (نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه)، وإما في غير بيته».

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ فجئه الحق وهو في غار حراء»(١).

ومما كان مطمئناً له ﷺ قبل نزول الوحي الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرىٰ رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح(٢).

ومع بشريته ﷺ وإعلانه بإعلان القرآن لذلك، إلا أنه ذكر من المعجزات والآيات ما كان آية علىٰ علو منزلته، ورفيع قدره؛ فقد حدَّث ﷺ: أن حجراً كان يُسلم عليه قبل النبوة(٣). فللَّه ما أعظم هذا القائد، وما أصدقه! فما عرفت مكة أميناً كأمانته ﷺ، فلما أظهره الله بالحق الذي معه لم يكن عندهم ظاهراً كذلك:

لقبتموه أمين القوم في صغر ... وما الأمين على قولٍ بمتَّهم

ولعلي أقف عند هذا الحد وأدخل فيما أردت من موضوع الحب لرسول ﷺ؛ فإن الحب أسمىٰ العلاقات، ولعله أرقها، وإنما يبعث علىٰ كتابة مثل هذا الموضوع قول الرسول الكريم ﷺ: «أنت مع من أحببت»(٤)، وأي سعادة تقارب تلك السعادة في الحب؟ وأي نجاح في النهاية يوازي ذلك الحب؟ يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإنما ينفع العبدَ الحبُّ لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين؛ لكون حبهم يقرب إلىٰ الله ومحبته، وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم»(٥).

وإذا تعلق قلب العبد بالله أحب كل ما يقرب إلىٰ الله ويزيده، ويبقىٰ أنه أشد حباً لله، فلا حب يوازي ذلك الحب، وإنما يحب بحب الله وله. قال ابن

(١، ٢) البخاري، رقم ٣، ومسلم، رقم ١٦٠، واللفظ له.
(٣) مسلم، رقم ٢٢٧٧.
(٤) البخاري، رقم ٦١٦٧، مسلم، رقم ٢٦٣٩.
(٥) الفتاوىٰ: ١٠/ ٦١٠.

تيمية: «فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك؛ فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم إذا كنت تحبهم لله؛ فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه؛ فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله»(١).

وإن مما دعاني إلى كتابة هذه الأحرف ما أراه من تخلي القريب الأدنى عن سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتحليهم بما يؤسف له من رموز الفكر والأدب في جميع أحاديثهم، وإن هذا نكس ونقص في الفطرة والتعليم، وإلا فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ [**البقرة**: ٦١].

وما أراه من هجوم البعيد على سنة الكريم ﷺ وسيرته، مما تبثه وسائل الإعلام المختلفة تصريحاً وتلميحاً، ظاهراً وباطناً، والله المستعان.

«وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها؛ لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس»(٢).

وحسبي إن أنا خضت في هذا الموضوع أن أنال محبة القوم، وحسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم:

---

(١) الفتاوى: ١٠/٦٠٨.

(٢) مجموعة العبقريات، لعباس العقاد، ص ١٠.

أســـيـــرُ خـلف ركـــاب النُـجْبِ ذا عـــرج ... مـــؤمـلاً كـــشف مـــا لاقـــيت من عـــوج
فـــإن لحـــقتُ بهم من بـعـــد مـا ســبـــقـــوا ... فـكـم لـربٍّ الورى فـي ذاك مـن فـــــــرج
وإن بقـــيـت بظـهـــر الأرض مـنقـطعـــاً ... فـــمـــا على عـــرج في ذاك مـن حـــرج

واسمح لي أن انتقل وإياك إلىٰ جيل تعيش معهم الأمن والسكينة بعد أن ذقت من الدنيا خوفاً وهلعاً، ودعني أستل من قلبك خيطاً أبيض نلتمس به الصلة بيننا وبينهم، وأعرني دمعة تخفف بها الهوة بيننا وبين رسول الله ﷺ وتوقيره. قال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ: (ذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني؟ فقال: «ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه»[١]. وقال عنه مالك: «وحجّ حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه»[٢].

وقال مصعب بن عبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون»، وذكر مالك عن محمد بن المنكدر ـ وكان سيد القراء ـ: «لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتىٰ نرحمه»[٣]، ولقد كنت أرىٰ جعفر ابن محمد ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا علىٰ طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا علىٰ ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. وكان الحسن ـ رحمه الله ـ إذا ذكر حديث حنين الجذع وبكائه[٤] يقول: «يا معشر

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٤.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٧.
(٣) حلية الأولياء: ٣/ ١٤٧، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٥٤، ٣٥٥.
(٤) البخاري، رقم ٣٥٨٤.

المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»(١).

وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر ... عيناً لغيرك دمعها مدرارُ

ولقد رأيت الزهري ـ وكان لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه)(٢).

وقال عمرو بن ميمون: «اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدّث يوماً فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كربٌ، حتى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، ثم انتفخت أوداجه، وتربَّد وجهه وتغرغرت عيناه»(٣).

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يشبه برسول الله ﷺ، فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقّاه وقبّل بين عينيه، وأقطعه المِرغاب، لشبهه صورة رسول الله ﷺ(٤).

وإني سائل بعد تلك الصور المتحدثة: أين نحن من سيرتهم؟ وأين حالنا من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٧٠، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ص ٥٧٢، مكتبة ابن تيمية.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض، ص ٥٩٨، بتصرف وإحالة.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٥٩٩.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٦١٠.

حالهم؟ وما أثر الحب عندنا؟ وما أثره عندهم؟ بل وما صدق ما ندَّعي؟ وما صدق ما لم يدَّعوه؟ وأين حقيقة ما ندَّعي؟ وما دلائل المحبة عندهم؟

لقد قام في قلوبهم ما قصرت همممنا عن أن تقوم بأقله، وأحيوا في شعورهم ما ماتت مشاعرنا دونه، وتعلقت أبصارهم فيما وراء الطرف، في حين لم تتجاوز أبصارنا أطرافنا، ألا رجل لم تقعد به همته ولم يتأخر به عمله؟! ألا صادق يترجم المحبة قولاً وعملاً وغيرة؟! ألا فارس لا يرجع إلا بإحدىٰ الحسنيين؟!

أيها المُحبُّون: لقد تباعد بنا الزمن، واستنسرت الفتن، واشتغل الأكثرون بالحطام من المهن، غاب عنا الحب وإن ادعيناه، ونسينا الواجبات فكانت من أحاديث الذكريات، نتحدث عن السنة النبوية والهدي النبوي لكن لا ترىٰ جاداً في الاتباع، ولا صادقاً في الكلام ـ إلا قليلاً ـ:

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تُقر لهم بذاكا

مظاهر الجفاء مع النبي ﷺ:

ولمزيد من التوضيح فلنعرض أنفسنا علىٰ السنة المطهرة، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم، ولنعرض بعض المظاهر التي أحسبُ أنها كافية في إيضاح الجفاء الذي اتصف به بعضنا مع رسول الله ﷺ وسنته، لعل الله أن يزيد المهتدي هدىٰ، وأن يبدل الجافي إلفاً، والبعيد قرباً، والغالي قصداً.

١ ـ البعد عن السنَّة باطناً وظاهراً:

يأتي في أول تلك المظاهر البعد عن السنَّة باطناً؛ وذلك بتحول العبادات إلىٰ عادات ونسيان احتساب الأجر من الله، أو ترك متابعة الرسول ﷺ وتعظيمه، والمحبة القلبية الخالصة له، ونسيان السنن وعدم تعلمها، أو البحث عنها، وعدم توقير السنة، والاستخفاف بها باطناً.

ومن ذلك أيضاً: البعد عن السنَّة ظاهراً؛ وذلك بترك العمل بالسنن الظاهرة الواجب منها والمندوب، وعلىٰ سبيل المثال سنن الاعتقاد ومجانبة البدعة وأهلها بل وهجرهم، أو السنن المؤكدة مثل: سنن الأكل، واللباس، أو الرواتب، أو الوتر،

أو ركعتي الضحى، وسنن المناسك في الحج والعمرة، والسنن المتعلقة بالصوم في الزمان والمكان، فصارت السنَّة عند بعض الناس كالفضلة ـ والله المستعان ـ.

ولعمر الله لا يستقيم قلب العبد حقيقة حتى يعظِّم السنَّة ويحتاط لها، ويعمل بها. هذا وقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» كما في الصحيحين[١]، وكان كلامه هذا ﷺ في أمر الزواج وأكل اللحم ونحوهما.

وقد قال أُبَيُّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: «عليكم بالسبيل والسنَّة؛ فإنه ما من عبد على السبيل والسنَّة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتَّت عنه خطاياه كما يتحاتُّ الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنَّة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإنَّ اقتصاداً في سبيل وسنَّة خير من اجتهاد فيما خلاف سبيل وسنَّة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنَّتهم»[٢].

٢ ـ ردُّ الأحاديث الصحيحة:

ومما يلاحظ من الجفاء رد بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة بأدنى حجة من الحجج، كمخالفة العقل أو عدم تمشيها مع الواقع، أو عدم إمكان العمل بها، أو المكابرة في قبول الأحاديث، وتأويل النصوص وحرفها لأجل ذلك، أو رد الأحاديث الصحيحة باعتبار أنها آحاد، ـ وأغلب أحكام الشريعة إنما جاءت من طريق الآحاد ـ، أو دعوى العمل بالقرآن وحده، وترك ما سوى ذلك، وقد قال ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري؛ ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[٣].

---

(١) البخاري، رقم ٥٠٦٣، ومسلم، رقم ١٤٠١.

(٢) أبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٥٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٦.

(٣) الترمذي، رقم ٢٨٠٠، وأبو داود، رقم ٤٦٠٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٨٤٩.

وإن زعموا ما زعموا من وجوب وحدة المسلمين على القرآن وحده؛ فإن الله ـ تعالى ـ أوجب في القرآن الأخذ عن الرسول ﷺ كل ما أتى به جملة وتفصيلاً فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقد ذكر الله ـ تعالى ـ طاعة الرسول ﷺ في القرآن في ثلاث وثلاثين موضعاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(١).

قال الحميدي: «كنا عند الشافعي ـ رحمه الله ـ فأتاه رجل، فسأله في مسألة؟ فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! ترى على وسطي زنَّاراً؟! أقول لك: قضى فيها رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟!»(٢). وقال مالك: «أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله؟!»(٣).

ويقول ـ رحمه الله ـ: «سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سناً الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله ـ عز وجل ـ واستكمالٌ لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»(٤).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن الأدب معه ألا يُستشكَل قوله، بل تُستشكَل الآراء لقوله، ولا يُعارَض نصه بقياس، بل تُهدَر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يُحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، ـ نعم! هو مجهول، وعن الصواب معزول ـ، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد.

---

(١) أبو داود، رقم ٤٦٠٤، صححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٨٤٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٣٤، وحلية الأولياء: ٩/ ١٠٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٩٩، وشرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٥.
(٤) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٧.

فكان هذا من قلة الأدب معه ﷺ، بل هو عين الجرأة»(١).

دعوا كل قولٍ عند قول محمدٍ فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

٣ ـ العدول عن سيرته ﷺ وسنته:

وفي عصر الإعلام يتجلى الجفاء في العدول عن سيرته ﷺ وسنَّته وواقعه وأعماله إلى رموز آخرين من عظماء الشرق والغرب ـ كما يسمون ـ، سواء كانوا في القيادة والسياسة، أو في الفكر والفلسفة، أو في الأدب والأخلاق. والأدهى من ذلك مقارنة أقوال هؤلاء ومقاربتها لأقوال النبي ﷺ وأحواله، وعرضها للعموم والعامة؛ وتلك مصيبة تهوِّن على العوام التجني على سيرة المصطفى ﷺ وسنَّته، وتثير الشكوك في أقواله وأعماله التشريعية ﷺ والتي هي محض وحي: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [**النجم**: ٤]. لكن بعض الأذهان لا تتعلق إلا بالواقع المشاهد، واللحظة المعاصرة، فينبهرون بأولئك، وينسون العظمة التي عاشها النبي ﷺ للأحياء وللأموات، للحاضر وللمستقبل، بل للحياة وللموت.

أتطلبون من المختار معجزة يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياهُ

وقد سمَّى الله الكفر قبل الإيمان موتاً، والإيمان حياة، قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...**﴾[**الأنعام**: ١٢٢].

أخوك عيسى دعا مَيْتاً فقام له وأنت أحييت أجيالاً من العدم

وأعماله ﷺ ما زالت وستظل قائمة بأعيانها متحدثة بعنوانها عن عظيم وعظمة وحياة، ولا تحتاج إلى دليل وبيان:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ويلحق بذلك: تقديم أقوالهم على أقواله ﷺ، وأحوالهم على أحواله، وأعمالهم على أعماله، ويا للأسف! من يقوم بمثل تلك الأعمال؟ إنهم رجال العفن وفئة من أهل الصحافة وبعض ساسة الإعلام والتعليم ممن تسوّدوا بغير

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٠٦.

سيادة، وقادوا بغير قيادة!!

٤ ـ نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ:

وفي مجالسنا ومنتدياتنا يلاحظ المتأمل منا جفاءً روحانياً يتضح في نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ وكأنها حديث عابر، أو سيرة شاعر، أو قصة سائر، فلا أدب في الكلام، ولا توقير للحديث، ولا استشعار لهيبة الجلال النبوي، ولا ذوق للأدب النوراني القدسي، فلا مبالاة، ولا اهتمام، ولا توقير، ولا احترام، وقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ [**الحجرات**: ٢]. هذا أيها الناس هو الأدب الرباني؛ فأين الأدب الإنساني قبل الأدب الإسلامي؟

كما نهىٰ الله قوماً كانوا ينادونه باسمه: (يا محمد) كما ذكره كثير من المفسرين، فيسلب المنادي الشرف الذي تميز به رسول الله ﷺ وهو النبوة والرسالة، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، لكنه أدب فتأمله.

«كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت؛ فلا يتحدث أحد، ولا يُبرىٰ قلم، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً، كأن علىٰ رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة؛ فإذا رأىٰ أحداً منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»[(١)]. ولعله بذلك يتأول الآيات الثلاث في أول سورة الحجرات؛ كما تأولها حماد بن زيد بهذا المعنىٰ[(٢)].

«وكان مالك ـ رحمه الله ـ أشد تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ، فكان إذا جلس للفقه جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمّم وقعد علىٰ منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلىٰ فراغه تعظيماً للحديث»[(٣)].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٢٠١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٦٠.

(٣) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/ ١٩٦، والشفا لعياض: ٢/ ٦٠١.

ولذا حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على تعليم الناس تعظيم النبي ﷺ ميتاً كتعظيمه حياً، وذلك من تمام وفائه للنبي ﷺ. روى البخاري ـ رحمه الله ـ عن السائب بن يزيد، قال: «كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما، قال: من أنتما؟ـ أو: من أين أنتما؟ ـ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!!»[1].

٥ ـ هجر أهل السنة أو اغتيابهم والاستهزاء بهم:

ويلحق بالجفاء: جفاء القلوب والأعمال تجاه من خدموا السنة، ويتمثل ذلك في هجر أهل السنة والأثر العاملين بها، أو اغتيابهم ولمزهم والاستهزاء بهم واستنقاص أقدارهم، وانتقادهم وعيبهم على التزامهم بالسنن ظاهراً وباطناً.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وتصور حالة الغربة والغرباء تجد قلتهم في هذا الزمن وغيره، وقد سبقنا إلى تصويرها ابن القيم حين قال:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم
ولكننا سبي العدو؛ فهل تُرى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

وفي وصف أهل السنة والأثر يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[2].

وعيرني الواشون أني أحبها ... وتلك شكاةٌ ظاهر عنك عارها

وهذا أحد السلف وهو الجنيد بن محمد يقول: «الطرق إلى الله ـ تعالى ـ كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته؛ فإن

---

(١) البخاري، رقم ٤٧٠.
(٢) البخاري، رقم ٣٦٤١، ومسلم، رقم ١٠٣٧.

طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]»[١].

أما من لم يدرك السنة والعمل بها فلا همّ له إلا الكلام والملام.

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

وفي الحقيقة أن من تكلم فيهم لا يضر إلا نفسه:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يُضِرْها، وأوهى قرنَه الوعلُ

ولعل هذا أيضاً مما ينشر السنن بين الناس:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت؛ أتاح لها لسان حسود

٦ ـ هجر السنن المكانية:

ومن صور الجفاء الممض الذي طبقه الكثيرون ـ من غير استشعار للجفاء ـ: هجر السنن المكانية، وشواهد هذا الجفاء في حياتنا كثيرة؛ فترىٰ من الناس من يحج كل عام ويعتمر في السنة أكثر من مرة، ومع ذلك تمر عليه سنوات كثيرة لم يعرِّج فيها علىٰ المدينة النبوية إلا أقل من أصابع اليد الواحدة، وقد يعتب بعضهم علىٰ أهل الآفاق أو الوافدين الذين لا يقدمون الديار المقدسة في العمر إلا مرة، ويأتون المدينة فيصلون فيها ويغتنمون أوقاتهم، وترىٰ من أولئك الآفاقيين حرصاً لا تكاد تجد بعضه عند سكان الجزيرة، بل يعتصر الإنسان أسىٰ علىٰ أننا في هذه الديار وقلَّ منْ يهتم بالزيارة، وقد يزورها لكن علىٰ عجل وخوف من فوات مصالح يظنها كذلك، وإن زارها فلا اهتمام بالسنن والشعائر، وهذا لعله من النسيان والانشغال بغير السنن والبعد عن قراءة السيرة النبوية؛ فإن الإنسان بحمد الله يجد من الأمن والأنس والطمأنينة القلبية في المدينة النبوية ما لا يجده في غيرها إلا مكة:

---

(١) أبو نعيم في الحلية: ١٠/ ٢٥٧، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٩.

ويا حبها زدني جوىً كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدكِ الحشرُ
وصلتكِ حتى قيل: لا يعرف القِلى ... وزرتكِ حتى قيل: ليس له صبرُ
وإني لتعروني لذكراكِ هزة ... كما انتفض العصفورُ بلَّله القَطرُ
هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا ... من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمرُ

«وجديرٌ لِمَواطن عُمِّرت بالوحي والتنزيل، وتردَّد بها جبريل ومكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ﷺ، وانتشر عنها من دين الله وسنَّة رسول الله ﷺ مدارس آيات، ومساجد، وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومواقف سيد المرسلين ﷺ، ومتبوّأ خاتم النبيين ﷺ»[1] أن يُعتنى بها، وأن تحل في القلوب وتخالط بشاشتها، وأن يكون في زيارتها ما يحدو إلى اتباع السنَّة وتعظيم نبي الأمة ﷺ.

* ومن السنن في المدينة: الصلاة في المسجد النبوي، وهي صلاة مضاعفة، كما قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[2].

* ومن السنن المكانية: الصلاة في مسجد قباء، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه أُسيد بن ظُهير: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[3].

وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: «لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحبُّ إليَّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، ولو يعلمون ما

(١) الشفا لعياض: ٢/ ٦٢٢.
(٢) البخاري، رقم ١١٩، ومسلم، رقم ١٣٩٤.
(٣) الترمذي، رقم ٣٢٣، وابن ماجه، رقم ١٤١٤، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٦٧.

في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل». قال الحافظ في الفتح: «إسناده صحيح»(١).

وهو محمول على إرادة سعد ـ رضي الله عنه ـ الترغيب في زيارته، لا على جواز شد الرحال إليه؛ فقد قال ﷺ: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى»(٢). «فيستحب السفر إلى مسجده»(٣).

* ومما نسي في المدينة من السنن المكانية: الصلاة في الروضة الشريفة، وهي من رياض الجنة التي ينبغي التنعم فيها والاعتناء بها؛ إذ هي من أماكن نزول الرحمة وحصول السعادة وأسبابها(٤). وقد بين ذلك ﷺ بقوله: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(٥).

قال ابن حجر ـ بعد أن ذكر الأقوال في المراد بمعنى الروضة ـ: «والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها»(٦).

ولكن المحروم من حُرم الخير وصدف عن طريقه:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر فقد راحا

* ويلحق بزيارة المدينة النبوية زيارة قبر النبي ﷺ والسلام عليه وعلى صاحبيه، رضي الله عنهما. وهل يُسلِّم على النبي ﷺ كلما دخل المسجد(٧) ممن

(١) لمزيد من البحث في هذا الحديث وأسانيده وطرقه. انظر: أخبار المدينة النبوية لابن شبة، تعليق الشيخ عبد الله الدويش، ١/ ٤٣ ـ ٤٥. وانظر الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة/ صالح الرفاعي ـ رسالة دكتوراه، طبعة مجمع الملك فهد، ص ٥٣٤، ٥٣٦. وانظر تعليق ابن باز على فتح الباري: ٣/ ٨٩ ـ ٨٥.
(٢) البخاري، رقم ١١٨٩، ومسلم، رقم ١٣٩٧، واللفظ له.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١/ ٢٣٤.
(٤) انظر فتح الباري: ٤/ ١٢٥، مدارج السالكين لابن القيم، ٣/ ٢٦٠.
(٥) البخاري، رقم ١١٩٦، ومسلم، رقم ١٣٩١، وانظر فتح الباري: ٣/ ٩٠.
(٦) فتح الباري، ١١/ ٥٨٠.
(٧) وهو غير الدعاء عند دخول المسجد.